

محاورة حول العلاقة  
بين العقل والحرية

## شخصيات المحاوره:

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي، سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.

حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.

نورما: أستاذة جامعية.

ثريّا: مديرة مدرسة خاصة.

سعيد: رجل أعمال ناجح.

صونيا: أنظر اليكم بعيون تشتعل فيها نارٌ طالعةٌ من بركان قديم كان قبل ألف عام ملتهباً حممه تطاول السماء، وعندما لامسه الفكر السلفي تخاذلت قواه وخمد، تكدس فوقه الجليد وأصبح مكباً لنفايات الصقيع.

أنظروا إليّ وخذوا من نبع النار حاجتكم واعطوني ثماراً أنضجها اللهب، أعطوني أحاسيس طهرتها الحرائق، أعطوني أفكاراً راعفة ألوانها تحاكي ألوان زهر الرمان، مذاقها يحاكي مذاق خميرٍ عُتق في دير جبلي عتيق.

إنه قلبي يسيل نهراً من لَهَب، إنه عقلي أحس المادة فيه تنقلب طاقةً وتنتشر دفئها وضوءها في كل اتجاه، حتى جسدي أراه الآن يتشظى كأنه مهرجان ألعاب نارية.

سليمان: كأنك طائرٌ أفلت من قفص الواقع ليرندح أغنيةً إبداعيةً في أذن الفضاء، إنه طائر الحرية الذي ربطوا أجنحته بواقع تناقضات الحياة اليومية، ذلك الطائر الأزرق المزركش صدره بالأحمر والأصفر، الساعي بشغف لتطهير العقل من منطق التبريري، والجسد من شهواته المتضاربة، والانطلاق مع الشمس المتمسكة بحبال الريح لكي تحسن الرقص على جدائل تلك الصبية المغناج التي اسمها الأرض.

حسام: كأنك نورٌ مرئيٌّ لشمسٍ غير مرئية، كأنك القبلة التي طبعها المجرّد على شفتي المحسوس، سيدتي هل أنت نهر الكوثر الذي تمده السماء بين نهديها وفي خلجانه يتوهج محار اللؤلؤ والمرجان وفي أعماقه مغاور الزمرد والياقوت.

سليمان: لغزٌ وجوديٌّ محيرٌ كلما فكرت فيه كلما ازددت حيرةً، كيف قُدِّر للروح التي هي قبسٌ من نور الله أودع في جوهرها أهم خواصه الوعي والحرية أن لا تستطيع ممارسة وجودها العملائي إلا من خلال جوارح هذا الجسد وآلياته، كيف للنور أن يعايش ظلمة العفوية والزوجة وصديد الفضلات وصراخ الشهوات الجامحة باستمرار إلى التهام المواد الكثيفة والشبق الدائم لطلب آخر ما أنتجته العفونات.

نورما: الجسد وردة الروح تتفتح وتذبل في كل لحظة، إنها جدلية الحياة والموت، جدلية ولادة أشياء لم تكن، وتلاشي أشياء كانت، لعبة الخلود والفناء، يا لها من لعبة تزرع الآمال العظيمة والآلام المبرحة في كل مكان.

سعيد: هذا الانسان كم هو عجيب، يحمل أطناناً من الأحلام والأوهام والهموم، يعمر الدنيا بأفكارٍ شاردة ويهدم الدنيا بأفكارٍ شاردة، يحوّل الصحاري الى مروجٍ وغابات ويحوّل الغابات والمروج الى أرض قاحلةٍ سبخة، يتطهر بالماء والتراب والهواء ثم يزرع التلوث في كل مكان، إنه الانسان العملاق الذي ينهار إذا لمس مسمار حدثٍ بسيط.

ثريا: إنه انسان الغرائز التي تمردت على قوانين الطبيعة، والشهوات التي جنحت الى التطرف حتى لامست المستحيل، والانفعالات التي ساهمت في تخريب مجتمعات بكاملها، لا عمل لعقله إلا تبرير ما قامت به شهواته، وانفعالاته وإقناع نفسه وإقناع الآخرين بأن ما يفعله حقّ يتناغم مع قوانين المنطق، وهو الذي يلوي الأشياء ويؤول الحقائق فقط لتتنسجم مع شهواته الشاذة، من منكم يقول أن الانسان حيوان عاقل أخلاقي؟.

صونيا: لقد نسيتم أنّ الانسان هو الكائن الوحيد في هذا الوجود الذي يمتلك الوعي والحرية والاحساس بالمسؤولية، قدره السعي المتواصل لاكتشاف قوانين الطبيعة بالعقل الذي هو قبسٌ من نور الله، لا ليسخر الطبيعة لخدمة شهواته في التملك والإستنثار والتسلط والإستغلال، بل ليتناغم مع الطبيعة بمسلكياته وآماله وأحلامه ومناهج تفكيره ليعيش السعادة واقعاً متجسداً في كل تصرفاته المادية والمعنوية لا حلاً مستحيلاً يوجد آلاف التناقضات بينه وبين عالم الواقع.

حسام: أنا لا أفهم قوانين الطبيعة إلا من خلال مبدئين اثنين، الحبّ والتوازن الجمالي، تتجاذب الكواكب بعواطف متوازنة تجعل كل كوكب يعرف حدوده فلا يتجاوزها، يعرف بالقوانين الجبرية المنغرزة في جبلته أنّ وجوده مرتبط بمدى جذب الكواكب الأخرى له وجذبه لها، إنه الحبّ العادل الذي لا يطلب التملك الأناني والاستنثار السلطوي، ليت بني البشر تعلموا ذلك من الطبيعة لما رأينا امرأة تُحجّب

لأنها عورة، وأخرى تُسجن في بيتها باسم الغيرة والمحافظة، ورجلاً يمتلك مجموعة نساء ويعشق مجموعةً أخرى، يتباهى بفحولته ويطلب من نساءه أن يتباهين بالخفر والحياء والبرودة والزهد في متاع الحياة الدنيا. أما التوازن الجمالي فهو قمة الوعي البشري ومبدأ تشبه المخلوق بالخالق، فقط إقرؤوا قصيدة لتروا هل جوهر صورها الشعرية متوازن مع جوهر إيقاعها الموسيقي، وهل الاثنان متوازنين مع خلفيتها الفكرية لتحكموا إن كانت قصيدة جميلة أم لا. كذلك المرأة هل أعضاء جسدها متوازنة مع بعضها ومتوازنة مع أفكارها وأحاسيسها وأحلامها وآمالها لتحكم عليها إن كانت جميلة أم لا.

أنا مثلاً أعتبر صونيا مثلاً أعلى للتوازن الجمالي، فهذا الوجه الابيض المشرب بقليل من الحمرة، وهاتين الشفتين الناضجتين كحبتي كرزٍ ذبيح، وتلك العيون السوداء والرموش الوارفة والصدر الناهد الذي يتحدى جبروت السماء والقَدّ الذي يتلوّى ولا يتكسّر والأرداف التي تنجذب الى الأسفل وتجذبها الأناقة الى الأعلى، كل ذلك متوازنٌ مع عقلٍ يفكر ولسانٍ يعبر وأحاسيس تشع في كل اتجاه وآمالٍ تجاوزت المدى، باختصار صونيا هي أفروديت وأثينا في شخصٍ واحد.

سليمان: اذا كان الجمال تناسقاً بين الجزئيات لإعطاء الكل كينونته التامة فهذا يعني أنّ الجمال ثمرة من ثمرات شجرة العقل، لأن العقل وحده المسؤول عن التنظيم والتأطير ليبلغ الشيء كماله وليستطيع أن يحقق هويته ويعيشها فرحاً وسعادة، هل نسينا بأنّ العقل الكلي هو الذي نظم هذا الوجود وأطره بواسطة فيض التأييد الالهي فجعله متوازناً متناسقاً، لكل هويته الخاصة به وعلاقاته الإيجابية بالموجودات الأخرى ليتكامل هذا الكون ويغدو واحداً في جوهره كل جزئياته تخدم وحدته وتعيشها وتتلذذ بذلك. يبقى أن نعلم أنّ الوجه الآخر للعقل على الصعيد الانساني هو الحرية ولولا حرية مبادرة العقل لما حقّق لنا أن نسميه عقلاً وكان الأجدر أن نسميه روبوت مبرمج على خطواتٍ ينفذها جبراً ولا فضل له في تنفيذها. بالحرية يأخذ العقل البشري معناه فهو حرٌّ أن يتواصل مع العقل الكلي لفهم قوانين الطبيعة والتناغم معها لتحقيق كمال إنسانيته وكمال سعادته، وحرٌّ أن يرفض التواصل ويزرع الفوضى والاستبداد والاستئثار والشرّ في كل مكانٍ وزمان. ولمّا كان أحد

قوانين الطبيعة الأساسية أنّ لكل فعلٍ ردة فعلٍ توازيه في القوة، وجدنا أنّ الانسان الذي يمارس الظلم والاستبداد والاستئثار سترتد عليه أفعاله في حيواته المتلاحقة ألماً وعذاباً ومرضاً وقهراً وجهلاً وعبودية.

سعيد: ولكننا ومن عهد نوح وحتى اليوم نرى الشرّ والفوضى والاستبداد والشهوات متربعة على عرش السلطة، والناس تساق بعصا القوة عبيداً لفرائض يسمونها سماوية ويروّجون لها بأنها هبطت من الله بواسطة ملائكة لا يوجد أي دليل على وجودها ولا يوجد أي دفاع منطقي عما جاء في تلك الفرائض من متناقضات تخالف بعضها البعض وتخالف قوانين الطبيعة ومنطق العقل.

نورما: عن أي ملائكة تتحدثون فالملاك هو الانسان الذي استطاع عقله أن يمتلك شهواته وغرائزه فيجعلها تنساق الى منطقته وتتناغم مع قوانينه، والشيطان هو من شطنت به شهواته وغرائزه المتطرفة الشاذة والتي تخالف قوانين الطبيعة عن سراط العقل المستقيم.

ثريا: غريبٌ هذا النزوع الى التسلط والاستئثار بالخيرات في مسيرة التاريخ الذي وصلت أخباره إلينا، فالحاكم يدّعي أنه ممثل الله على الارض معصومٌ من الخطأ وما يقوله أوامر ونواهٍ من يطيعها يكافأ بالخدمة في دار السلطان والأكل من رغبته والضرب بسيفه، ومن يخالفها فالويل والثبور وعظائم الأمور فهو زنديق منافق وعميلٌ لسلطةٍ أجنبية تريد العبث بأمن البلاد والعباد واستقرارهم. والأدهى من ذلك أننا عبر مسيرة هذا التاريخ الذي نعرفه لم نجد مرجعيةً دينيةً إلا وهي في خدمة أغراض السلطان وغاياته، تستमित في استعمال المنطق التبريري المدعوم بالنظريات السماوية لتبرير تسلطه واستبداده واستئثاره بخيرات الارض ظاهرها وباطنها.

سليمان: قرأت في إحدى كتب التراث أنّ الله أول ما أبدع من نوره الشعشعاني العقل الكلي في صورة دائرية كاملة بالقوة، تامة بالفعل جوهره مفطور على خاصيتين إلهيتين هما الوعي والحرية، ثم خاطب الله سبحانه العقل خطاباً معنوياً في زمن معنوي فقال له أقبل وكان خطابه طلباً لا أمراً، ولمّا كان العقل مفطوراً على الوعي

فهم أنّ الله يريد منه أن يقبل على معرفته ومحبته وطاعته، ولما كان العقل مفطوراً على الحرية أيضاً كان باستطاعته أن يستجيب أو يرفض، ولكن العقل عندما سمع نداء ربه عصف الشوق في جوهره حتى غدا لهيباً، وانجذب الى ربه مشتاقاً فكان فيض التأييد له من الله، وكان فيض الحبّ منه على ذاته وعلى ما سيخرج من جوهره من دوائر الوجود، لذلك غدا الحبّ ناموس هذا الكون وغدت العلاقة بين جميع موجوداته علاقة محبة وتوازن وتناغم. ولما كانت النفس الانسانية قبساً من نور الله مستودعة في جوهر العقل كان جوهرها عندما خرجت من دائرة العقل الكلي من القوة الى الفعل مفطوراً على الوعي والحرية.

حسام: وأنا بدوري قرأت في أحد كتب التراث أنّ الله سبحانه قال: كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني، وعندما قرأت ذلك فكرت كثيراً بمقصود عبارة "وبي عرفوني"، ونحن في مكان آخر قرأنا بأنّ الله منزّه ليس كمثله شيء وفي إطار ثالث أنّ الله موجودٌ وأنّ الوجود بكامله ممتلئٌ بالله، ثم قرأنا بأنّ الانسان عبداً للقضاء والقدر وأنه مهما يفعل لا يستطيع أن يغير حرفاً مما كتب من قدره في اللوح المحفوظ، وأشياء كثيرة تبدو متناقضة للوهلة الأولى، ويبدو معها الوعي والحرية حديث خرافةٍ يا أم عمرو.

نورما: أنا شخصياً أعتبر أنّ المادة سبقت الوعي فالإنفجار الكبير أطلق الهيلوى الأولى التي منها انبعثت الطبائع الأربعة الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ثم من تفاعل هذه الطبائع الأربعة انبعثت الإستقصات النار والهواء والماء والتراب، ومن تفاعل الطبائع والإستقصات انبعثت المجرات والكواكب ولا زال بعضها يتلاشى وبعضها يتشكل. أما الوعي أو ما تسمونه العقل الكلي فقد أخذ يتشكل رويداً رويداً مع تفاعل الطبائع والإستقصات وتشكل المجرات والكواكب، فالمادة صنعت قوانينها بنفسها وانضبطت تحت لواء القوانين التي صنعتها، ولمّا تكاملت القوانين وأصبح الانسان قادراً أن يعي ذاته ويعي ما حوله من موجودات، أطلق الانسان على تلك القوانين لقب العقل الكلي والبعض لقب الله. ولمّا كانت حركة المادة متواصلة لا تهدأ والموت والولادة أحد نواميسها، والتغيير المستمر طبيعة من طبائع تفاعلاتها، كان مفهوم الله والعقل الكلي مفهوماً متحركاً ومتغيراً يأخذ شكل تفاعلات

المادة وما تفرزه من تقلبات. أما الحرية التي نتحدثون عنها فأنا لا أرى فيها إلا حتمية متحركة بتحريك تفاعلات المادة وبالتالي هي أمنيةٌ وحلمٌ جميلٌ ملون لا تمت الى عالم الواقع بأي صلة.

ثريا: أنا بدوري أرى أنّ الانسان ليس إلا مركب أنتجته الجينات الوراثية ومفاهيم الزمان والمكان الذي يتواجد فيه، فالانسان ابن بيئته المادية الصرف، وما أنتجته تلك البيئة المادية من مفاهيم سلوكية وفكرية مرتبطة بها بل هي ثمرة من ثمراتها.

سليمان: أنا أفهم الحرية بأنها السعي الذي لا تخمد نار همّته للوصول الى الحقيقة، والحقيقة ليست إلاّ القوانين التي فطرها الله في جوهر العقل الكلي وفاضت منه على العقول الانسانية فغدت نواة جوهرها.

سعيد: هذا يعني أنّ الحقيقة موجودة في داخل نفوسنا، إذن لماذا يفتش عنها العلماء في الطبيعة الخارجية.

صونيا: ألم يقل ابن سينا أنّ الانسان عالم صغير إنطوى فيه العالم الأكبر، وهذا معناه أنّ القوانين المنقوشة على مرآة جوهر النفس الانسانية هي نفسها القوانين التي تنظم صيرورة موجودات هذا الوجود بكامل جزئياته.

ثريا: أفهم من كلامك أنّ كل الأفكار الغيبية والرومانسية التي تقوم على الأوهام والتمنيات هي نوع من أنواع العبودية طالما أنّ وظيفة الحرية الاساسية هي السعي لمعرفة الحقيقة والتلاحم معها نظرياً وعملياً.

سعيد: أنا لا أفهم الحرية إلا من باب حرية المنافسة في الانتاج وحرية فتح جميع الأسواق أمام المنتجات لجعل المنافسة وسيلةً لمزيد من تطوير الانتاج وتحسين نوعيته.

حسام: ولكن الأقوياء في هذه الحالة يحتكرون الأسواق لأن الضعفاء غير قادرين على المنافسة، وبذلك القوي يزداد قوةً والضعيف يخرج من السوق ويضمحل ويتلاشى، بعدها يأتي الأقوياء ليسنوا القوانين التي تتناسب مع مصالحهم، ونعود الى مبدأ الاستئثار والى أن يُفرض على المجتمعات الضعيفة أن تكون مجرد مجتمعات



استهلاكية تباع موادها الخام و ثرواتها الطبيعية لتحصل فقط على رغيف الخبز وهذا هو الشيطان المتجسد على أرض الواقع والذي يعبت بكرامات الناس ويسد الأبواب في وجه تطورهم وارتقائهم.

صونيا: عندما قال سليمان أنّ الحرية ليست إلا السعي الدؤوب لاكتشاف الحقيقة والتناغم معها في أفكارنا ومسلكتنا العملية فمعنى ذلك أنّ الحقيقة ليست حكرًا على الأقوياء ليتملكوها ويشددوا قبضة استغلالهم للضعفاء كما يحصل اليوم في تملك الأقوياء لحقائق التكنولوجيا المتطورة، ولكن الحقيقة يجب أن تكون أبوابها مشرعة لكل من يرغب في الانتماء إليها دون عوائق أو عراقيل، وبما أنّ الحقيقة وحدة لا تتناقض جزئياتها فكذلك الانسانية وحدة يجب ألا تتناقض جزئياتها بين قوي وضعيف ومنتج ومستهلك وأبيض وأسود وعالم أول وعالم ثالث، ويجب ألا تُسخر الحقيقة للربح وزيادة الملكية والاستئثار بل لما يعود بالخير على الانسان ويساعده على التطور والارتقاء وعلى تحقيق إنسانيته التي هي غايته الأولى في الحياة.

نورما: الجميع يتكلمون عن الحقيقة والسعي لاكتشافها والتناغم معها، وهم يتخيلون الحقيقة مبادئ ثابتة مكانها يشبه مكان الله على العرش فوق السماء السابعة. الحقيقة ليست إلا حركة التاريخ في مسيرته، فاجتياح الاسكندر المقدوني الامبراطورية الفارسية بخمسين ألف جندي مقابل مليون أفرز حقيقة أنّ المقاتل الحرّ يستطيع أن يتغلب على منّي مقاتل من العبيد والمرترقة، فالحروب حركة تغيير وبالتالي هي ضرورة لتسريع التغيير الذي ينتج حقائق جديدة تفرز أنماط مسلكيات جديدة وأنماط معيشة جديدة، فالحرب العالمية الثانية مثلا وتدمير هيروشيما بالسلاح النووي أفرز حقيقة جديدة أنّ أميركا أصبحت سيده العالم والمتحكم بشؤونه وشجونه، وما نراه على ساحة الشرق الأوسط منذ ستين عاماً يثبت ذلك بالواقع والقرائن، فالمصالح الأميركية هي التي ساعدت الديكتاتوريات العربية للتحكم بشعوبها ومصادرة عقولهم وحرّياتهم واضطهاد منقفيهم، والمصالح الأميركية هي التي أشعلت فتيل الفكر الديني السلفي والصراع المذهبي ليجتاح المنطقة ويضعها بين خيارين أحلاهما مرّ، إما الموت تحت أنياب الضبع أو الموت تحت أنياب الذئب.

سليمان: عندما طلب الله من العقل الكلي أن يُقبل الى معرفته ومحبته وطاعته، وعصف الشوق في جوهر العقل، وتحرك لمعرفة باريه، ولدت الحركة مبدأً لنظام سيرورة هذا الكون بكامل موجوداته، فكل الموجودات الجزئية تتحرك شوقاً باتجاه كمال نوعها، ولكن الانسان وحده يتحرك حركة واعية وحررة فيطلب المزيد من نور المعرفة والمزيد من شوق المحبة وهذا هو مبدأ التطور والارتقاء، والله طلب من الانسان أن يطيعه غير مجبرٍ ولا مكره، فالطاعة هي ثمرة الاقتناع، والاقتناع هو ثمرة الاختيار الحرّ. أما الطاعة التي يطلبها الحكام بالترغيب والترهيب فهي مظهر من مظاهر العبودية ومحاولة تجريد الانسان من جوهر كينونته الانسانية التي هي الوعي والحرية. لهذه الاسباب حاولت المرجعيات الدينية والسياسية والعسكرية الحاكمة صناعة سلاسل من الطقوس والتكاليف والشعارات والقوانين الوضعية لحبس الانسان في قوالبها الجامدة وجره عن وعي أو عن غير وعي الى النتيجة الحتمية لذلك وهي عبادة أصنام الشرائع والاحزاب وعبادة أصنام أشخاص الحكام. لا وعي بدون حرية ولا طاعة بدون معرفة ولا معرفة بدون تجسد عملاني على أرض الواقع المعيشي عدالة ومساواة وحقّ مقدس للانسان في حرية التفكير والتعبير والرفض والقبول والابداع والاتباع.

نورما: أنا لا أرى أي ارتباط بين الطاعة والوعي الحرّ، بل ما أراه أنّ الطاعة هي وليدة الخوف من العقاب بالدرجة الأولى، كنت في الصيف الماضي في لندن أتنزه في الهايد بارك قرابة منتصف الليل، رأيت بأمر عيني شباناً يخرجون من أحد البارات ويتلفنون حولهم في كل الاتجاهات حتى اذا استيقنوا أنه لا يوجد رجال شرطة يراقبونهم، أخذوا يكسرون المقاعد والمصابيح لا لشيء إلا للتلذذ بالتخريب، هذا هو الانسان على حقيقته مخلوقٌ عبثي عدواني إذا استطاع اغتصاب المرأة عنوةً فهو لا يقاربها تفاهماً واحتراماً ومحبةً، وإذا استطاع اغتصاب المال فهو لا يطلبه عملاً وكدحاً وتعباً، وإذا استطاع اغتصاب السلطة فهو مستعد أن يغرق البلاد في بحرٍ من الدماء ولا يتخلى عن كرسي حكمه. الطاعة هي وليدة الخوف سواء الخوف من جهنم الله أو الخوف من سجون الحكام أو الخوف من النبذ الاجتماعي، ولا دخل للوعي الحرّ في هذا الموضوع.

ثرياً: ما تقوله نورما صحيح فالموظف الذي تسنح له الفرصة ليسرق من المال العام ويكون في مأمن من العقاب والفضيحة حتماً سيسرق ابتداءً من رأس الدولة وحتى آخر حاجب في وزارة، ولهذا وضعت القوانين وطبقت بصرامة في الدول الراقية، وتلاعبت بها رياح الشهوات والفوضى في الدول المتخلفة حيث الغنى الفاحش لمجموعة صغيرة من بطانة الحكام والسماصرة والتجار، والفقر المدقع لعامة الناس التي حلمها الرغيف وحبّة الدواء، أما أصحاب المعرفة والحكمة والأخلاق فهم في تلك الدول إما مغضوبٌ عليهم مبعدون عن المراكز العامة، إما مذنون حتى برغيف الخبز، وإما مشردون في القارات الخمس.

صونياً: هذا صحيح فالدول الفاشلة لا تحتل وجود العارفين الأحرار الذين يملكون أخلاق الأسياد، إنه مجتمع عبيد، أخلاق أبنائه أخلاق عبيد يقوم على التملق والتزلف والاستزلام والكذب وانتهاز الفرص والسمسرة بالأرض والعرض والمواقف السياسية وبيع الجسد والفكر في أسواق النخاسة.

حسام: ربط الطاعة بالمعرفة هو شأن الفرسان الذين أخلاقهم أخلاق أسياد، وربط الطاعة بالخوف هو شأن العبيد الذين يزحفون على بطونهم كالديدان ورؤوسهم دائماً بين أرجلهم، هاجس السيد الأول هو طلب المعرفة والشوق لمعانقة الحقيقة والتعريح بهذه الحقيقة من منزلة إلى منزلة أعلى حتى التواصل مع كمال الحقيقة الذي هو الله، هؤلاء الأسياد يتقنوا أن العقل هو الطريق الوحيد للوصول إلى الله الذي هو كمال الحقيقة، ولذلك لم يستجدوا معرفة الحقيقة بوسائل غيبية خرافية كالتبصير والتنجيم وتحضير الأرواح وشرح الطوالع والأبراج، فهم قد علموا علم اليقين أن الكواكب والأبراج وغيرها من الجمادات مسخرة لخدمة الإنسان وليس الإنسان مسخراً لخدمتها، الإنسان العاقل هو الذي يعرف مصيرها وليست هي التي تعرف مصير الإنسان العاقل.

ثرياً: ولكن علم النجوم علم قائم بذاته، وأكثر الفلاسفة اشتغلوا فيه وربطوا مصير الإنسان بما عرفوه من أسرار.

سليمان: كيف يكون لجمادات لا تعي وجودها ولا تعي وجود ما هو موجودٌ معها وتسير بناءً على قوانين جبرية منغرزة في جوهر كينونتها وهي لا تعيها، أن تتحكم بمصير كائنٍ يملك العقل، فهو يعقل وجوده ويعقل الموجودات خارج ذاته ويعقل أنها في صيرورتها تخضع لقوانين جبرية، وكيف لهذا الكائن الحرّ الذي يملك القدرة على الطاعة والقدرة على المعصية، القدرة على القبول والقدرة على الرفض أن تتحكم بمصيره جمادات لا حياة فيها ولا وعي، إنها والله مهزلة المهازل بأن يتحكم الجماد غير العاقل بمصير الحيّ العاقل الحرّ المرید.

نورما: ولكن هذه الأفلاك والكواكب التي تسميها جمادات غير عاقلة هي التي أفرزت القوانين التي تضبط كينونتها في مراحل صيرورتها من التشكل وحتى التلاشي، هنا يجب ألا تنسوا أنّ هذه الكواكب تموت كما يموت الانسان لتولد كواكب أخرى غيرها، وهي في طريق موتها تهدم القوانين التي ضببت صيرورتها لتولد قوانين جديدة مع الكواكب المولودة لتوها، وهذا يدل أنّ القوانين نفسها متحركة يحكمها قانون التغيير، وأنها هي في حركتها موتاً وولادةً قد أفرزت هذه القوانين، ولم تفرض عليها من قبل عقلٍ كلي وجوده سبق وجودها كما تدّعون.

سعيد: أنا كرجل أعمال أفهم أنّ الشيء في صيرورته يخلق قوانينه بنفسه، خذوا مثلاً قصة الانتاج والتسويق، لم يكن هناك أفكار مسبقة وقوانين مسبقة، بل هو في حركته اليومية العالمية أفرز قوانينه بنفسه، هكذا أنا شخصياً أفهم العولمة حيث يقول البعض أنها بضاعة أميركية الغاية منها السيطرة على الرأسمال العالمي وحصره في قبضتها، ويقول البعض الآخر أنّ العولمة وضعت الرأسمال العالمي ومصير البشر في قبضة مجموعة صغيرة غير معلومة من الأقوياء، لا أحد يعرف عنهم شيئاً ولا أين مقرهم ولا ماذا يبغون.

صونيا: لا أدري لماذا يصر أكثر الناس على كونهم مجرد عبيدٍ لله أو عبيدٍ للقدر أو عبيدٍ للمال أو عبيدٍ للحكام، لماذا يخاف أكثر الناس من الحرية، يغثون لها ويتشوقون رؤيتها، وعندما تأتي اليهم فاتحةً ذراعيها واللهفة ملء عيونها، ينكرونها ثلاث مرات قبل صياح الديك، يعتبرونها مؤامرةً لهدم تقاليدهم وعاداتهم،

يعتبرونها تحايلاً عليهم لتجريدهم من ملكياتهم وسلطاتهم وتبديلاً لواقعهم الذي استكانوا له رغم آلامه الكثيرة وتناقضاته المكشوفة.

حسام: الغريب أنّ أكثر الناس يخافون من عقولهم أكثر مما يخافون من أعدائهم، لقد صورت لهم أدبياتهم الدينية والسياسية أنّ تأملات العقل وكشوفاته ليست إلا وسوسة الابليس، تعاملوا مع العقل كشيطان يحرضهم ضدّ حكامهم وأولي الأمر منهم، يحرضهم ضدّ الفرائض والتكاليف الدينية والزمنية التي فرضت عليهم، وخصوصاً يحرض المرأة على تبعيتها العمياء للرجل، وعلى كونها ظلاً لا يجوز أن يكون لها شخصيتها المستقلة وقرارها الحرّ، لا يجوز أن يكون لها رأي أو اختيار فهي ضمن ممتلكات الرجل يفعل بها ما يشاء جسداً وعقلاً، وإذا ما ظلمها أو هجرها أو ضربها أو جرّها الى البغاء فإنما ذلك لذنوب ارتكبتها "رغم عدم معرفتها بها" وهي تستحق واقعها وعليها أن تتقبله دون شكوى وإلا كانت معترضة على إرادة الله، أو أنها مسكونة بأرواح شريرة يجب أن تهرع مسرعة الى رجال دين ليطهروها مما علق بها من أرواح شريرة أو ليقتلوها إذا عجزوا عن تطهيرها.

ثريا: ولكن الأديان هي التي روّجت لوجود الملائكة والجنّ، هي التي روجت لوجود أرواح شريرة تحل في جسم الانسان والحيوان، ألم يكن شغل السيد المسيح الشاغل تطهير أجسام المرضى وشذاذ الآفاق من الأرواح الشريرة التي لبست أجسادهم وتحكمت بمصير حياتهم ومسلكياتهم، ألم تصور كل الأديان الابراهيمية الملائكة وطولها وعرضها وأجنحتها في أحاديث مسندة وصحيحة، واليوم ألا نرى أنّ المبصرين والمنجمين والذين يدّعون علم الغيب هم أكثر شهرة حتى من المغنيات والراقصات ولاعبى كرة القدم، أليس الى اليوم يذهب المرضى الى المنجمين لصنع الأحجبة ولفك الخطوط السحرية السوداء.

سعيد: قلما كان يوجد ملكٌ أو حاكمٌ الا وعنده عرّافٌ يتنبأ له بعلم الغيب ويحاول الربط بين ما يتعرض له من أحداث وبين مواقع النجوم وحركات الكواكب، وحتى اليوم وفي أقوى دول العالم لا زال للعرافين مكانهم المرموق فكل الحكام ورجال الأعمال والنساء يهرعون سراً اليهم وكثيراً ما يتخذون أخطر القرارات التي قد تغير مجرى المصير الانساني بناءً على نبوءات أولئك العرافين.

سليمان: تفنن الانسان عبر التاريخ في تحقير نفسه والتقليل من قيمته، يقول له الله لقد وهبتك قبساً من نوري هو الوعي والحرية والاحساس بالمسؤولية، ويصر ذلك الانسان العنيد بأنه عبدٌ مجبرٌ مصيره معلقٌ بجماداتٍ اسمها الأبراج والنجوم والكواكب، جمادات لا تعي مسخّرة لا تملك من زمام أمرها شيئاً، وهذا التفنن في تحقير الانسان لذاته ليس وليد الصدفة أو العبث، إنه خطةٌ مدروسةٌ من قبل الحكام والمرجعيات الدينية لكي لا يكتشف الانسان قواه الذاتية، وعندها سيرفض أن يكون مرتهاً لمشية الحاكم أو إرادة المرجعية الدينية، عندها يرفض أن يكون عبداً لقدّر هو في حقيقة الأمر مصالح الحكام والمرجعيات، ولن يرضى إلا بالعدالة ولن ينحني الا الى الحق والخير والجمال، واذا حصل ذلك لا يعود أصحاب النفوذ قادرين على التملك الجشع لعروشهم وأموالهم الطائلة وعامة الناس تلهث وراء رغيغ الخبز، عندها لن يعود هناك في قصور الحكام والمرجعيات جوار وعبيد وسيكون جميع الناس متساوين كأسنان المشط، تعطى للجميع نفس الفرص للارتقاء علماً وعملاً ومن يتفوق يتفوق بجهد لا بالوراثة ولا بضغط مراكز القوة.

صونيا: معنى كلامك هذا أن أي شريعة لا تقوم على مبدأ العدالة وإعطاء الناس فرص متساوية في التحصيل العلمي وفي الانتاج العملي وفي تداول السلطة، هي شريعة تخدم مراكز القوى لمزيد من التسلط على عامة الناس وابتزازهم واسترهانهم واستغلالهم بغطاء سماوي مؤدلج.

سعيد: عبثاً تصولون وتجولون وتنظرون، ما هو كائن شيء وما يجب أن يكون شيء آخر، ما قاله أفلاطون عن العدالة والحق والخير والجمال شيء وأخلاق السوق وآلية عمله شيء آخر، ما طلبه السيد المسيح من تلامذته ومريديه شيء والتصرفات على أرض الواقع شيء آخر، فلننظر حولنا ولنشاهد جميع أهل العلم كيف يخدمون أهل المال وليس العكس، العلم ليس غايته اكتشاف الحقيقة التي جعلها هيغل غاية وجود الانسان كما قلتم سابقاً ولكن غاية العلم خدمة أصحاب المال لتطوير وسائل انتاجهم وتطوير الأسواق بغية المزيد من الربح ولا شيء إلا الربح، وهذا التطوير لوسائل الانتاج ووسائل التسويق ليس غايته مساعدة الانسان على تحقيق إنسانيته كما تقولون، فكرامة الانسان وحقه في التفكير والتعبير والعبادة آخر

ما يخطر على بال أولئك الناس، الغاية هي تكديس أكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال في أيدي أقل قدر ممكن من الناس " مراكز القوى".

حسام: على أرض الواقع لا يوجد إلا أقوياء وضعفاء، أغنياء وفقراء، متخمون وجائعون، مترفون بالملذات التي لا تبالي بالحلال والحرام ومحرومون مكبوتون بإسم الفضيلة والأخلاق الحميدة، على أرض الواقع لا يوجد إلا دول قوية تحتكر المواد الخام وتمتلك وسائل الانتاج المتطورة وتحتكر الأسواق، ومليارات الضعفاء يعملون كأشباح بلا أرواح فقط برغيف الخبز الملوث بالكبت والارتهان والعبودية.

نورما: أنظروا الى هذا الشرق العتيق واحكموا بأنفسكم، فسوق الاستهلاك فيه، والذي يحدده الأقوياء والأغنياء، يتطلب راقصات ومغنيات ومومسات ومبصرين ومنجمين ومواعظ وفتاوى وكتب طبخ وأفلام سكس، ولكنها سوق تشيح بوجهها عن الأبحاث العلمية والروائع الفلسفية والابداعات الأدبية وتحقر المسرح إلا إذا كان للترفيه والمطبوعات إلا إذا كانت تحاكي البلاي بوي بالصور وليس بالأبحاث، ماذا تنتظرون من مجتمعات تترجم بحبات البندورة والبيض رجلاً حاز على جائزة نوبل في الآداب، وتنعي مفكرتها وترجم شعراءها وتخون مبدعيها وتحبس نساءها في دور الحريم. ماذا ترجون من رجال لا يحلمون إلا بفتح أفخاذ النساء وهم عاجزون عن فتح كتاب أو ولوج مكتبة.

سعيد: في أرض الديكتاتوريات لا يمكن أن تنمو ثقافة انسانية، ولا يمكن أن يتطور الانتاج وترتقي وسائل الانتاج. النجاح على جميع الأصعدة المادية والفكرية يتطلب مبادرة فردية حرّة، يتطلب عقولا تمارس الخلق والابداع، في ظلّ الديكتاتوريات وخصوصاً الديكتاتوريات الدينية التي تدّعي أنها تتكلم بلسان الله وتقرر بوحى يوحى من الله لا يزدهر الا عبادة الشخص وعبادة الشعارات، ثم يسود الكسل والاتكالية وتضمحل حوافز الانتاج على جميع الأصعدة، ينتشر الفقر، ومع الفقر الجهل ومع الجهل الكذب والنفاق والاستزلام وينقلب الناس الى قطيع كلاب تنبح على أدراج قصور سلاطين السلطة والمال والتشبيح.

صونيا: أنا شخصياً لا أستطيع أن أتصور وجود فضيلة عند أناس تمرسوا بالعبودية وتخلقوا بأخلاقها، لأن تعريف الفضيلة برأبي هو الرغبة بفعل شيء والامتناع عن فعله بغية شيء أسمى منه.

ثريا: أنت تقدمين لنا لغزاً وليس تعريفاً، لغزٌ يحتاج الى منجمين فهل تريدين منا العودة الى ثقافة التنجيم.

صونيا: سأضرب مثلاً يوضح تعريفي، كل واحد منا يملك شهوات قد تجمع في بعض الأحيان حتى تصل الى مرحلة الجنون، وكل واحد منا يريد إشباع تلك الشهوات، ولكننا في قرارة أنفسنا نعلم أننا إذا اندفعنا الى إشباع شهواتنا الجامحة سنخسر مروءتنا وشهامتنا وقد نخسر هويتنا الانسانية ونعود القهقري الى المرتبة الحيوانية، كما أننا نعلم إشباع تلك الشهوات سيشكل تعدٍ على كرامة أناس آخرين وسيضر بمصالحهم، هنا يقف العقل والضمير ليقولا لنا أنّ الحياة مروءة وشهامة ووقفة عزّ وتشبه المخلوق بالخالق، وليست شهوات جامحة تحمل في أحشائها بذور ردادات الفعل التي هي الألم والندم والاحباط. إذا لم يكن الانسان من أصحاب الوعي والحرية والاحساس بالمسؤولية لن يستطيع لجم شهواته والوقوف وقفة كرامة وعزّ ومروءة ولذلك أقول لا فضيلة في مجتمعات تحكمها أخلاق العبيد الفضيلة إحدى ثمرات الحرية.

سليمان: الحرية شأنها شأن الكواكب عليها أن تتحرك على محور يضبط نظام حركتها ويجعلها متوازنة ودائرية وهذا المحور هو العقل، لا يمكننا أن نتصور أي عمل إلا وله خلفية فكرية هي قصده وغايته، وهي التي تعطيه هوية كينونته، وهنا أستطيع أن أقول أنّ الحرية ثمرة على شجرة العقل والفضيلة ثمرة على شجرة الحرية.

نورما: ولكن الفلسفة البراغماتية التي ولدت ونمت في أميركا البلاد الحرّة التي لا يحدّ من حريتها أي ارتباط بدين أو طقس أو فرائض أو تكاليف، هي فلسفة تقول أنّ الفضيلة هي المنفعة، حتى ولو كانت هذه المنفعة على حساب مآسي الآخرين، وهذا ما فعلته أميركا عندما ساندت الأنظمة الديكتاتورية لتأمين مصالحها في السيطرة



على البترول والغاز والمواد الأولية والأسواق العالمية دونما اهتمام بحريات الشعوب ووعيتها الذي صدرته تلك الديكتاتوريات. وهذا ما تفعله أميركا الآن في مساندة التيارات الدينية المتطرفة وتغذيتها في السرّ رغم أنها تحاربها في وسائل إعلامها تضليلاً. إنها فلسفة خداع للشعوب واستهتار بقوانين العقل التي تتحدثون عنها وكأنكم تلاميذ تخرجتم من أكاديمية أفلاطون أو من لوقيون أرسطو.

حسام: مهما عبث الاقوياء بالحقيقة فهم غير قادرين على تغيير جوهرها، وكذلك هم في قرارة أنفسهم يعلمون علم اليقين أنهم يعبثون وأنّ الحقيقة تبقى حقيقة، فحبة الماس سواء وضعت في تاج ملك أو رميت في سلة مهملات ستبقى في جوهرها حبة ماس.

صونيا: سألني مرّة أحد الأصدقاء هل غناك غنى فاحش أم متوسط فأجبت: إذا كنت أملك شيئاً لا يستطيع أحد ولا يستطيع ظرف أن ينتزعه مني فأنا غنية عن حقّ وحقيق، أما إذا كنت أملك شيئاً يستطيع الآخرون أو تقلبات الزمان أن تنتزعه مني فأنا فقيرة، أجابني لقد فهمت العقل الحرّ المسؤول هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن ينتزعه منك وأنت غنية وغناك غنى فاحش.

سليمان: بالحرية يتمظهر العقل على ساحة المجتمع أفكاراً وأعمالاً إيجابية تخدم التطور والارتقاء وتساعد الانسان على تحقيق إنسانيته، وبالعقل تتحرك الحرية حركة إيجابية منتظمة تعطي ثمارها عدالة ومحبة وتضامناً وارتباطاً بالمجتمع والانسانية.

الجميع: بالحرية يتمظهر العقل وبالعقل تنتظم حركة الحرية.